

**محور أدب الطفل العربي
في ضوء الظروف المتغيرة
نظريات إبداع الطفل الأدبي**

تأليف:

أ.د. أحمد زلط

جامعة قناة السويس

محور أدب الطفل العربي في ضوء الظروف المتغيرة

في نظرية الإبداع (مقاربة وصفية):

منذ فجر الحضارات الانسانية وإلى العصر الحاضر، ومقولات كبار النقاد والفلاسفة وعلماء علم النفس تتناول بالرأى والتفسير عملية الفعل الإبداعي كظاهرة بشرية، وأقدم تلك النظريات في مجال الإبداع هي: نظرية الإلهام = الحلم = العبقرية: فالإلهام في نظر الشاعر اليوناني القديم مصدره (ريات الشعر)، أما الإلهام في نظر رصيفه الشاعر العربي القديم فمصدره (شياطين الشعر) واستمر سريان هذا المفهوم المسبب لعملية الفعل الإبداعي من العصر الجاهلي إلى عصر النهضة وماتلاه، وتوهم الشعراء أنهم يقرضون الشعر بفعل خارج عن إرادتهم، فأفلاطون وصف الشعر يومئذ بأنه كائن مقدس، ويفقد صوابه لحظة إبداع القول الشعرى، ووصف الشعراء كذلك بالجنون، فعند الإلهام تملكهم الشياطين، وفي تلك الفترات الزمنية كانت العرب تقول بشياطين الشعر الملهمة، في وادى الجن أو وادى عبقر ثم أخذت تلك الآراء تتوارى بظهور الإسلام، فعرفت التفرقة بين الوحي الإلهي، والإلهام المتخيل، ومن ثم جاء التضج الحضارى والتأمل العقلى، وانتقلت جذور نظرية (الإلهام) القديمة إلى ميدان آخر عرف فيه العقل البشرى الحديث معنى التجربة والاستعداد والمخاض ثم تحول المفهوم تجاه الإبداع من الإلهام الشيطاني أو من ريات الشعر، إلى الهام نابع من الحياة الروحية الإنسانية أو من صميم (الأنات العميقة) للفرد المبدع على حد تعبير (بيرجسون)، وهنا تحول مفهوم الإلهام من مفهوم غيبى إلى ما يشير إلى قوى غير مدركة تتبع من صميم الحياة النفسية الإنسانية تحت المبدع للفعل الإبداعي من خلال انبعاثات لا شعورية مصدرها الحلم أو الخدر الذى يشبه النوم عند الخطوط الفاصلة بين الحلم والخدر أو (السبات) واللاشعور، لذا قد حصد الكثير من علماء النفس والنقاد العديد من المؤشرات التى تدعم نظريتهم فى (الإلهام = الحلم) منهم على سبيل المثال: (دى بيران) و (جوتيه) و (جرانفيل) و (بيتون) و

(كوليردج) (وإدجار آلان بو) وغيرهم، وقد خلصوا إلى إمكانية استعادة حالات الهذيان الاستهوائية أى الجمع بين حالتى اليقظة والحلم معاً بنوع من المهارة الفائقة^(١). وقد عمق د. يحيى الرخاوى هذا المفهوم فقال: (إن الحلم يمثل إبداعاً (بيولوجياً) والنتاج الإبداعى هو الصورة المحورية الرمزية لهذه العملية الحتمية على مستوى فائق من الوعى والإرادة.. فالحلم وجود مناوب، والإنسان ليس هو مايعى، وإنما هو ما يتكامل بتوليفة من مستويات بعضها فى مركز وعى اليقظة على هامش اليقظة والبعض منها فى وعى الحلم والبعض الآخر فى وعى النوم بلا حلم^(٢)).

*** أما نظرية التحليل النفسى التى تزعمها (فرويد) فى نظرية مثيرة وشائكة فى تفسير عملية الإبداع يرى (فرويد) أن الصراع هو أساس الإبداع الفنى. والفن هو تحرير للطاقة الغريزية المكبوتة لاشعورياً عن طريق الرمز. وي طرح مبدأ الإعلاء Sublimation كأبرز ميكانيزم تلجأ إليه (الأنثى) من أجل تخفيف حدة الصراع، أو الوصول إلى الاتزان والاستقرار (مبدأ الثبات). إذا فالإبداع عند أصحاب ذلك الاتجاه يقضى أن يضحي الفرد بمبدأ اللذة = تقبل الحرمان الحسى لحساب الإبداع الذهنى والحضارى^(٣).

وفى ضوء ذلك لا يميل الباحث إلى قبول اتجاه التحليل النفسى على إطلاقه وإنما تفسير السلوك للإفادة منه _ فى الإبداع الأدبى خاصة _ ما يكمن فى مقولته بأن الحلم يقود إلى معرفة طبيعة قوى الصراع إذ أن الرموز فى الحلم لها أهميتها البالغة فى الكشف عن المضامين اللاشعورية.

وليس من شك أن رأى الشاقب لـ (يونيغ) يتفق والمنتج الإبداعى فى الحياة الإنسانية عبر تاريخها الطويل، فقال بأن الفن مصدره النفس العليا واستحالة انبثاق الفن من نشاط متدن كالدوافع الغريزية، لأن (فرويد) تجاهل فى نظريته (اللاشعور الجمعى) بما يحمله من موروثات جيلاً بعد جيل.

*** ولعل نظرية التحليل النفسى الفرويدية الأم، قد فتحت العديد من بحث مسيات

(١) سيكولوجية الإلهام، د. نورى جعفر، أفاق عربية، بغداد يونية ١٩٨٧.

(٢) الأدب والفنون، د. يحيى الرخاوى، فصول، مج ٥ ع ٢، يناير ١٩٨٥م.

(٣) الأصالة فى مجال العلم والفن، د. نورى جعفر، ط بغداد ١٩٨١م.

الإبداع فن قال (أدler) (بنظرية) القصور العضوى والتى عمقها (بافلوف) دون فى اتجاهه السلوكى من بعده فأسمأها من دلالتها عند (أدler) بالتعويضية بوصفها تعويضا للقصور ونتاجا للميل نحو التفوق الإبداعى لدى أصحاب العاهات أو القصور الجسمانى من أمثال: بيتهوفن وباشر بن برد والمعرى وابن الرومى وطه حسين ومحمد العلاتى وعبد الله البردونى وغيرهم.

* أما النظرية الثالثة فى تفسير المجالات الإبداعية فى الأدب والفن فهى: النظرية الاجتماعية = الأيديولوجية: وأصحابها يرون أنها تعبير عن المجتمع فيما يصدر عن الفنانين والأدباء وأن عملية الإبداع الفنى أو الأدبى تحى إفرأا ضروريا لقوانين اجتماعية وتاريخية وبيئية، ومن رواد تلك النظرية: (تين) و (بونالد) وغيرهما من أنصار الالتزام التاريخى والمذهبى السياسى الاجتماعى البينى فى المجمع.

ومع أن اجتماعية الأدب أو الفن للمجتمع والعكس صحيح عبارة يمكن قبولها عند أصحاب تلك النظرية إلا أن طمس شخصية المبدع الفنان وطبيعة دوره الشخصى فى عملية الإبداع قلل من استمرار ذبوع تلك النظرية لذاتها أو فى سياق نظريات أخرى.

وتفجر النظرية الرابعة: (النظرية السيكلوجية = الفسيولوجية) عدة قضايا فى مجال الإبداع، فتصف العمل الإبداعى بأنه جزء من السلوك يخضع لعمليات انعكاسية شرطية محددة، ويمكن إكساب الإنسان العادى مجموعة من العادات العقلية والوجدانية بحيث يصبح الفرد مبدعا، ولقى (بافلوف) ومعه السلوكيون ومعظم أصحاب المنهج الفلسجى انتقادات مستمرة لمقولاتهم، ذلك أن الواقع الراهن فى سائر المعمورة لا يشير إلى إمكانية تحويل جميع البشر إلى مبدعين أو فنانين، هذا من ناحية أما من الناحية الثانية فتكمن فى انتظار المزيد من النتائج التى لم تستكمل بعد فى الدراسات الدائرة لمناطق الأقسام العليا من الدماغ لدى الشخص المبدع وغير المبدع فى آن^(١).

(١) لمزيد من التفاصيل:

- الطفل مبدعا، أحد زلط، دار هبة النيل، القاهرة ٢٠٠٣.

- ذاكرة السحر، د. أحمد زلط، دار هبة النيل، القاهرة ٢٠٠٣.

وفى واقع الأمر، أن النظرية الاجتماعية الايديولوجية مع النظرية السيكلوجية، تشكّلان حجر الأساس فى إبداع شتى فنون أدب الطفل، شعره ونثره، لأن أدب الطفل فى جوهره، أدب موجه من الكبار إلى شرائح الصغار، فى ضوء احتياجات المجتمع، ومعطيات الواقع المعيش، والموقف الفكرى للمبدع، ومنجزات العلوم النفسية التى تمد علماء الأدب، بل المبدعين بخصائص مراحل الطفولة جميعاً، وإشباع حاجاتها، واحتياجاتها.

إن أى نظرية إبداعية لا تقوم كاملة إلا إذا اشتملت على المرسل والمستقبل، والغاية أو الغايات من استقراء محتواها ومضمونها، فالطفل هو المتلقى (متذوق أو متأدب أو متعلم أو موهوب) والمرسل هو المبدع (الشاعر والقاص والمسرحى وكاتب الأغاني والأنشيد). وإذا كانت الوظيفية المقصودة(*) من وراء إبداع أدب الطفل تتمحور عند الجوانب التربوية (التعليمية واللغوية والأخلاقية) والفنية والجمالية، فإن بذور " ... العناصر الجمالية أو (الكيفيات) الجمالية هى أول غرس فى عالم الطفل الجمالى، وتبدو فى نظرة الطفل للألوان، والأضواء، والأصوات، والحركات، والإيقاعات ويميز الطفل بين لون وآخر أو صوت وآخر وغيرها، بمثابة إدراك الوعى الجمالى، من أسسه الأولى مرحلة أثر أخرى، أو خبرة موقف بعد آخر.

والإدراك الجمالى يتناغم مع موهبة الطفل وينمو من صنع بيئته (ولكنه تكوينى من خلال وراثته فتكوين الطفل phenotype يتبع خصائص وراثية genotype تخزنها مورثاته gense وتنقلها مكن جيل لآخر مستمرة إلى ما لا نهاية أحياناً، وقد يتبادر إلى الأذهان أن الشوايت الوراثية لا شأن لها بشقافة الطفل، ولكنها فى الحقيقة تلعب دوراً هاماً فى تثقيفه(١).

والأدب أحدهم العوامل لرصد الجمال فى الأشياء والكون من حوله، فنبدأ بإيقاظ هذا الحس الجمالى من خلال الآيات القرآنية _ عندما يبدأ يحفظ آيات وسور من القرآن فى بداية المدرسة _ التى تكشف عن أن الجمال فى تنظيم الكون وتصميمه مقصود وليس شياً بلا معنى، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ ﴾

(*) ينظر: الوظيفة: معجم مصطلحات الأدب د. مجدى وهبة، معجم الطفولة، د. أحمد زلط وغيرهما.

(١) ثقافة الطفل، د. ألف حقى، عالم الفكر، مج ١٠، ٣٤، الكويت.

الآية ٥ سورة الملك. كذلك الآيات التي تكشف بعض خصائص الجمال مثل التوازن والتناسق والترابط بين أشياء الكون مثل: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ الآية ٣ سورة الملك. كذلك ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ الآية ٢٧/٢٨ سورة فاطر. والبيئة بمعناها الواسع، تحيط بعالم الطفل، في قبحها وجمالها، في إيقاعها الرتيب أو اللاهث، وغيرها، ومع ذلك فإن الطفل يتذوق، بل هو فنان بطبعه، مهما كان مستوى البيئة التي يعيش فيها في ضوء ما أسلفناه، فإن أداة التعبير والتفكير في أدبنا كانت وستظل هي "اللغة" بمستوياتها المناسبة للراشدين أو الناشئين، ويمثل (القرآن الكريم) المثل الأعلى، لأنه المتفرد في إعجازه البلاغي، والبياني، والإيقاعي، لذلك فإن خبراء المناهج يعظمون من دوره في صياغة لغة الطفل، ومن ثم التوازن الإيقاعي من فواصله الموسقة، ولغته المعجزة. ثم يأتي الأدب لتحقيق نماذجه _ مع الطفل خطوة، خطوة، نأزر المعرفي مع الوجداني. وقد تخيرنا في هذا البحث فن الشعر (شعر الأطفال) لتحليل ما ذكرناه وقوافي الشعر واتساق ألفاظه أي تنظيمه الداخلي الخاص، كلها عناصر أدبية تسير مع حديث الطفل Child Talking في بعض جوانبه وبخاصة مردودها في التركيز والاتساق والتكرار، وكلنا يعرف أن الأطفال يستمتعون بالأصوات المنغومة وتدق الأصوات الموزونة من قبيل أمهودات النوم والأناشيد والأغاني والمقطعات الشعرية القصيرة (الترنيمات) التي يفهمونها فهمًا كليًا أي أن ذلك الميل ينسجم مع بعض البنيات العقلية الداخلية. للطفل والتي تنظم من تلقاء نفسها بطريقة خاصة عند الإتصال اللغوي إن أطفال عالمنا العربي والإسلامي يلقنون آيات القرآن الكريم، ويستظهرونها بالصوت الذي يشي بالمعنى الدلالي الكلي، وهذا الفهم الكلي للكلمات القرآنية يشرى عقل الطفل ووجدانه، وينمو لغة الطفل ونضجه العقلي "تتحول تصورات الكلية إلى دلالات ذات معنى هنا تنهض اللغة بدور استشارة التفكير وكما أن كل كلمة ننطق بها تعبر عن انجماها فإن المعنى meaning المتحدث به لغة يكون واحدا بالنسبة لكل المتحدثين لكل المدلول Sense يدل على ما يضيفه كل منحدث إلى

المعنى العام وكيف يغيره أو يثريه. وإذا كانت الكلمات تمثل صوراً للأشياء فإن ثمة علاقة بين الكلمة وصورتها وبين الكلمة ومدلولاتها في الذهن" (*).

شعر الطفولة مقارنة تحليلية (أحمد زرزور أنموذجاً)؛

توطئة؛

* شهد الربع الأخير من القرن العشرين، مع فاتحة الألفية الثالثة، رواجاً في الإبداع للطفل، وظهرت كوكبة من كبار الشعراء والأدباء على امتداد الوطن العربي، وتمثل ظهورها في إسهام متنوع ورائع لفنون الإبداع الموجه للأطفال..

لقد أثمر حصاد إبداع الطفولة عن بروز نخبة مبدعة في أدبنا العربي المعاصر في مصر، وهي التي تسلمت رايات الإبداع في أعقاب الجيل الذي تلى رائد أدب الطفولة كامل كيلاني، فلم يعد إبداع الطفولة وقفاً على إبداعات عبد التواب يوسف، وأحمد نجيب ويعقوب الشاروني وسليمان العيسى وزكريا تامر وبيان الصفدي وفاروق سلوم ومحمد محمود رضوان وغيرهم من أبناء الجيل الذي أمسك الراية من كامل كيلاني أما الأجيال المعاصرة، فأفادت من مجهودات التاريخ والتأصيل وإسهامات الرواد المحدثين، لذلك ألفينا الأشعار والقصص والمسرحيات والأناشيد يكتبها المعاصرون الجدد أمثال: عبد المنعم عواد يوسف، أحمد سويلم، أحمد زرزور، أنس داود، يس الفيل، السيد القماحي، ليلى بدر، ليلى الكيلاني، محمود قاسم، فاطمة المعدول، سمير عبد الباقي، خالد اليوسف، محجوب موسى، محمد فريد معوض، عمر بهاء الأميري، محمد أمين، أمين عز الدين وغيرهم.

وفى الواقع أن اضطراب الإبداع للطفل العربي من حيث "الكم" و"الكيف" في أدبنا المعاصر، يدحض التوهم لدى بعض الأصوات التي تقلل منه كأدب أو تحقر بما ينخبطون في فنونه، فكبار الأدباء، ابدعوا، مثل أواسطهم، والنقدو البحث يواكبنا حركة الإبداع الملحوظ في أدب الطفل، طالما أدرك الجميع أهمية الفروق التي لا بد منها؛ في مستوى عقل الطفل وإدراكه مما يقل - كما مر منطقياً - عن مستوى أدب الكبار، وفى ذلك تنطبق مقولة الأمام الغزالي (- ١١١١م): "كل لكل عبد (فرد) بمعيار عقله، وزن له بمقدار حجمه".

(*) الطفل مبدعاً، مرجع سابق، المقدمة.

* بادئ ذي بدء، أود الإشارة إلى أن هذا البحث تنمة لسلسلة تناول أدب النخبة الأدبية المعاصرة فقد سبق أن تناولنا من بين جهود المعاصرين، مجهودات(*) الشاعر أحمد سويلم (١٩٤٢-؟) لذلك سيطوف البحث مع نتاج الشاعر أحمد زرزور كأحد رموز الإبداعية المعاصرة للطفل.

أحمد زرزور وشعر الطفولة المعاصر:

يحتل الشاعر أحمد زرزور (١٩٤٩م-؟) مكانة متميزة، بل في الصدارة مع أكابر شعراء الطفولة في مصر، طوال العقدين الأخيرين وقد لقيت أشعاره الموجهة للأطفال نجاحاً ملحوظاً، بحيث تفوق إبداعه الشعري للطفل عن إبداعه الشعري للكبار، وقد توج مجموع نتاجه بالحصول على جائزة الدولة التشجيعية لأدب الأطفال في مطلع تسعينات القرن الماضي، مما حفز الشاعر للتواصل مع عالم الطفولة، فأصدر أكثر من ديوان شعري(**) لمرحلتى الطفولة الوسطى والمتأخرة، وابتكر الشاعر عملية اندماج الرسم مع الشعر في مخاطبة الطفل، إذ خصص غلاف مجلة "قطر الندى" في كتابته "قصيدة" شعرية تعكس "لوحة تشكيلية" يرسمها الطفل كل عدد، مما يشكل ديواناً يتآخى فيه الفن والأدب، والآمال معقودة أن يستمر ذلك العمل الفني غير المسبوق.

وفق الشاعر من خلال ديوان «كى يسلم الجميع...»^(١) أن يؤدي وظيفة تعليمية

(*) ينظر كتابنا: جماليات النص، دراسات نقدية في الأدب المعاصر، ذاكرة السحر، الخطاب الأدبي والطفولة، وغيرها، فالشاعر أسهم في كتابة الأغاني لطفل ما قبل المدرسة، وحكايات من ألف ليلة وليلة، والمسرح الشعري للطفل (١٥ مسرحية)، والأمثال (حكمة الأجداد)، والقصة الشعرية، أيضاً ودواوينه للطفل أتمنى لو، تعاملوا نغنى، أنا وأصدقائي، وغيرها من كتب السير والتراجم المبسطة للطفل. (الباحث).

(**) أحمد زرزور، شاعر مصري، يعمل مديراً عاماً بالهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، من مواليد قرية سرور هيت محافظة المنوفية عام ١٩٤٩م، اختير عضواً بالجلس المصري لكتب الأطفال، نشرت أشعاره بالدوريات المصرية والعربية منذ أكثر من ثلث قرن وصدر له أكثر من ديوان شعري للكبار، أما دواوينه للأطفال فأهمها: «ويضحك القمر»، «سلام عليكم»، «أغنية الأسير»، «وردة القمر»، «فوس قزح»، «بلياتشو»، ما قالته الغيمة الأخيرة»، «كى يسلم الجميع... لم أعد أحسدهم» وغيرها من عشرات اللوحات في قصائد ومنفردات أخرى قيد النشر.

(١) ديوان كى يسلم الجميع شعر أحمد زرزور، ص ص ١٥، ١٦، ط المركز القومي لشقافة الطفل ومنظمة اليونيسيف، القاهرة، ١٩٩٣.

عن طريق الفن، ذلك أنه لفت انتباه الطفل إلى أهمية الوعي الصحى البيئى لدى
طفل القرية، من خلال نص شعرى مقنع بلا خطابية فجأة يقول تحت عنوان:

كى يسلم الجميع:

منشفة واحدةُ

لأوجه الجميع

منشفة واحدةُ

تضرر بالجميع ...

ومن خلال تكرار المقطع الشعرى داخل سياق النص يقطن الطفل إلى أن المنشفة
الواحدة لكافة أفراد الأسرة تنقل العدوى المرضية؛ أيضاً يعانى طفل القرية من
الاستحمام فى الترع أو المصارف، فيصاب بالأمراض المتوطنة، مما حذر منه الشاعر
على لسان الأب فى سياق نص عنوانه: «... ولم أعد أحسدهم»: يقول فيه:

يحق أن ترثى لهم

لو عرفوا يا ولدى

أى أذى أصابهم

فالدود قد عاجلهم

بدائه،

واحتلهم!

ياويلهم

ياويلهم".

وفى شعر أحمد زرزور للطفل إلحاح فنى على تقديم الوظيفة التربوية أو
التعليمية فى سائر منظوماته للطفل، ومنه «أغنية الحداد» التى أوردها ديوانه «أغنية
الأسير» ومن خلال الأغنية يؤكد على قيمة العمل المهنى ومدى حاجة المجتمع إليه
فيذكر فى المطلع:

«تراقصى تراقصى

يا نار فى الاتون

تراقصى وعانقى

ابتسامة العيون

فحللى الكبير

أن يصبح الحديد

طائرة تطير

أو مقعداً جديده» (١)

فالشاعر تتسلل أغنية فى لغة دالة، وخيال بسيط، إلى عقل الطفل وإدراكه، ومنه أنشودة الوفاء للمعلم، ومن خلال لغة رشيقة وصورة قرية يغرس الشاعر تلكم القيمة فيذكر:

«حيوا معلم

واحنوا له الجباه

فكم أنار عالمى

وسرت فى ضياه» (٢)

لقد ألفينا خبرة الشاعر التى أودعها لاستهلال السابق، بحيث تحول الخطاب من جمهور الطفولة عامة إلى الذات، ذات كل طفل مما يتعمق فى دواخلهم قيمة تجلّة المعلم والوفاء لدوره، ولشخصه كذلك.

نموزج آخر للشاعر يؤكد من خلاله على ضرورة «النوم المبكر والاستيقاظ المبكر» بدلاً عن شواغل سهر الطفل مع مستجدات العصر، أو خارج المنزل، يقول الشاعر من قصيدة «القمر والأحلام».

(١) ديوان أغنية الأسير، شعر أحمد زرزور، ص ص ١٣ ن ط ١ دار جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٥ .

«القمر البسام
يرنو إلى شباكتنا،
ويرسل السلام
أظنه يقول بابتسام:
تهياؤا للنوم يا صغار
هذا
أوان
أجمل الأحلام...!»^(١)

أما تهذيب (الحكايات الشعبية الموروثة) على لسان الأجداد، فاستثمرها الشاعر في قصيدة أخرى عنوانها «حكاية المساء» ومن خلالها يطرح على الطفل وبأسلوب فني (النموذج القدوة) حول رموز لبيتها تكون؛ فيذكر:

«لا تحكى لى يا جدتى
عن ساحر شرير
أو شبح يطير
أو غولة
مخيفة،
محلولة الشعور
بل أحكى لى يا جدتى
عن بطل شجاع
قد أنجبتنا أرضنا على مدى الدهور
أو عالم،
مفكر

(١) ديوان وردة القمر، أحمد زرزور، ص ١٠، ط ١ دار الملتقى، قبرص، ١٩٩٥ م.

جليل

أضاء ليل شعبه

وقال للمحال: «لا يعرف الأحرار فى الحياة مستحيل ...!»^(١)

ويندمج الشاعر مع عالم الطفل؛ بل حياته الأسرية، إذ يجيب الطفل فى غرفة
سكنه، فى مقطوعة وصفية، سهلة اللغة، بسيطة الخيال، يقول تحت عنوان: «ماذا فى
حجرتى؟»:

«فى حجرتى صور

للورد والقمر

والشمس، والغيوم

والطير والشجر ... !

فى حجرتى كتب

جميلة الرسوم

لقطة ثب

أو زورق يعوم

فى حجرتى ستارة

تزين الشباك

ولعب كثيرة

تناثرت هناك!»^(٢)

إن أطفالنا، سيتمون لغرفتهم ويألفونها بمفرداتها، ومنه يواصل الشاعر الحث على
ذلك فى قوله:

«بورك فى كتاب

(١) ديوان وردة القمر، أحمد زرزور، ص ١٠، ط ١ دار الملتقى، قبرص، ١٩٩٥ م.

(٢) ديوان قوس فرح، أحمد زرزور، ص ٨، ط دار جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨ م.

يحمله الأصحاب

يفمرنا بالنور

من علم مسطور

يبتكر الأفكار

أو ينشد أشعار»^(١)

فالكتاب أحد مفردات الغرفة، يتحول إلى صديق للطفل، ونور المعرفة مع أحاسيس الوجدان، يشكلان منظومة في حياة الطفل، وهو ما وفق إليه الشاعر دون تعقيد لغوي، أو خيال مركب، أو أفكار بعيدة عن عالم الطفولة. لم ينس الشاعر في أغلب دواوينه، تعميق طبيعة العلاقة بين الطفل والعالم المحيط به، بهدف سلوكي تارة، أو اجتماعي تارة أخرى، ومنه ما أورده مقطوعته «سلام الله»: (*)

سلام الله يا أبتى

سلام الله يا أمى

سلام الله أهديه

إلى أهلى، إلى قومى،

سلام الله للشرطى

يحرس أمن شارعنا

وللعمال يشتغلون ليلا

فى مصانعنا

سلام الله للشرفاء

يحترمون حق الجار

فقد أوصى النبى به

(١) المرجع السابق ، ص ٣ .

(*) حدث خطأ طباعى من الناشر ، إذ ص ١٦ هى المتمة لـ ص ١٤ ، وص ١٥ مقطوعة مستقلة .

ألا، فليعمل الأخيار»^(١)

أما الوطن، فوطن محبة وسلام، ويمزج الشاعر دائماً بين سلام مأمول عادل، وإعداد العدة لكفاح يصد العدوان، يقول الشاعر مخاطباً الطفل من مقطوعته وطن محبة!

«أيدينا ممتدة

بسلام ومودة

وطنى وطن محبة

يا أهلاً بالصحة،

ويختمها بقوله:

سوف ترون العجبا

من عد الأسلاف

وتلاقون الحبا

فى بلدى المضيف»^(٢)

ملمح ثان فى أشعار أحمد زرزور للطفل، وهو ما يلى غرسه مفاهيم المواطنة والانتماء للوطن، وأعنى به قضايا العروبة والأمة، كأنما يريد التنشئة السياسية للطفل على أسس من وعى المواطنة الصحيحة فى أبعادها والأدوار التى تنتظرها، ومنه قوله:

«يا صاحبى

يا صاحبى النبيل

إذا أردت أن ترى ابتسامة الورود

ضعها أمام (خوذة) الشهيد

(١) ديوان «سلام عليكم»، أحمد زرزور، ص ص ١٤، ١٥، ط١ دار جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨.

(٢) ديوان «أغنية الأسير»، أحمد زرزور، ص ص ١١، ١٥، ط١ دار جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨.

أو حظها على شباك
جارك
المريض
أو أعطاها لجدك الحبيب
فى
صباح
العيد...» (١)

فتكريم شهداء الوطن، شهداء الأمة يتصدر سلوكيات زيارة المرضى، أو ترجمة
عواطف المحبة للأجداد. لذلك يشرك الشاعر، الطفل العربى، مأساة أطفال الخيام فى
فلسطين فى قوله:

«على جدار خيمتى

بطاقة ملونة

لربوة مخضرة، وقلعة، ومثذنة

وطفلة حزينة

بين الخيام جائعة

ترنو إلى الأفق البعيد _ فى المساء _ دامعة» (٢)

وشاعرنا يثق فى مكنون الأمة وقدرتها على تجاوز نكبة فلسطين إذا ما توفرت
العزيمة والصبر والإرادة، فيذكر:

«فلنفخر بعقول سهرت

وقلوب فى الشدة صبرت

حتى صعدت نحو القمة

(١) ديوان وردة القمر، أحمد زرزور، ص ١١، ط ١ دار الملتقى للنشر، قبرص، ١٩٩٥ م.
(٢) ديوان «أغنية الأسير»، أحمد زرزور، ص ٧، ط ١ دار جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨.

بمزيمتها

أعظم أمة...»^(١)

لقد استشعر أحمد زرزور خطر الاحتلال ومأساويته، فجسد خطورته غير مرة في اشعاره للطفل ومنه قوله من مقطوعة حكاية الولد الفلسطيني:

«يا نجمة المساء

يا حلوة الضياء

قصدتى حكاية

حزينة البداية

أنا فقدت دارى

ونتهت فى القفار

فالغاصب اللثيم

الغادر الأثيم

سطا على بلادى...»^(٢)

*** أن الشاعر يمزح حب "الأب" بمحبة "الأوطان" فى عناق غريب، ومن ثم يتمثل الطفل حاضره ومستقبله والدور الذى ينتظره، يقول شاعر تحت عنوان "لماذا أحب أبى": فى شعر ثنائى القوافى أو مزدوج القافية، والحديث فى المقطوعة يجرى على لسان طفل، وحديث الطفل هو جذر اللغة المتنامى، وأهم العلماء الذين درسوا أهمية اللغة وتطورها عند الطفل أمثال: "جان بياجيه" و "هنرى والون" و "بارهو سكنر" و "جبروم برونر" و "ليف فيجوتسكى" و "الكسليونتييف" وغيرهم، قد أوضحوا كيفية الاتصال اللغوى بين أشكال الحديث عند الطفل ووظائفه من جانب وبين الحقيقة الخارجية على الجانب الآخر^(٣):

(١) ديوان «أغنية الأسير»، أحمد زرزور، ص ١٠، ط ١ دار جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨ .

(٢) ديوان وردة القمر، أحمد زرزور، ص ٣، ط ١ دار الملتقى للنشر، قبرص، ١٩٩٥ م.

(٣) Child Development & Education, Lada Aidarova, p: 52 .

أحب فى أبى	طموحه للفد
وجهده الدءوب	وسميه للمجد
وحبه العظيم	لأرضنا الطهور
وحلمه الكبير	يفجرها المنصور
أحب فى أبى	إيمانه العجيب
بعودة الشريد	لبيته السليب
وعودة الطيور	للعش فى الربيع
نزف للدروب	بشارة الرجوع ^(١)

أما شعر "الوصف" فى دواوين أحمد زرزور للأطفال، فيجئ انعكاساً راقياً يحتذى من خلاله الشاعر المعايير الفنية السديدة لكتابة النص الأدبى الموجه للطفل، لغة وخيالاً وإيقاعاً وأفكاراً، ومنه قوله:

كوكبنا كرة زرقاء

موج وزوارق وسماء

كوكبنا عش مفتوح

لطيور تأتى وتروح

تلهو تحت الشمس وتمرح

أو تقف على النخل وتصدح^(٢)

ومنه أيضاً قوله المستجاد يصف شم النسيم على لسان الحيوان فيذكر:

نحن صفار الحيوانات

نخرج فى أحلى النزهات

نلعب مع غمر أو نضحك

(١) ديوان قوس فرح ، أحمد زرزور ، ص ١١ ، ط دار جهاد للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨ م.

(٢) «بلياتشو» ديوان شعر أحمد زرزور ، ص ٦ هيئة قصور الثقافة ، ع ١٨ القاهرة د . ت.

فاليوم محال أن نهلك!

ما أجمله عيد ربيع

وحش الغابة صار وديع

...

شم نسيم شم نسيم

لكن هذا النمر لثيم

فلتأهب متبھين

منذ متى والوحش أمين؟ (١)

ويلتقط الشعر، أثر نهر النيل في حياة المصريين صفاراً وكباراً، فيصف خيره

وفيوضات الماء عبر جداوله التي تملأ الوادي والدلتا فيذكر:

نون. هاء. راء. نهر

يجرى في الوادي بالخير

أنا والنيل سنبنى وطنى

فليتدفق طول الزمن

إلى قوله:

نهر يمنحنا الأفراح أنا والصائد والفلاح

ماء يهتف للصحراء جئت لك لتصيرى خضراء (٢)

ومن الوصف المستجاد قول الشاعر يخاطب جمهور الطفولة، إذ يوحى إلى

تعريف طيف الخيوط الملونة الإشعاعية المعروفة بقوس قزح فيقول:

«ما أروعه قوس قزح

سنسميه قوس فرح

(١) المرجع السابق ص: ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ك ١٦ .

يهدينا أزمى الألهوان

فى طيف حلو... فتان^(١)

وقوله يصف أنهما الغيث فى فرح وبركة:

"يا أخونى الشطار

هيا مع الأطيار

فى الصبح كل نهار

نشدو مع العصفور

للغيث وهو يسير

يروى الأراضى البور^(٢)

ومن أمتع منظوماته الوصفية للطفل قوله:

شجيره الصفصاف

نمت على الضفاف

تمنحو على الطريق

بظلها الصديق

شجيرة الصفصاف

تقول: لا أخاف

من عطش أو جوع

فالنهر تحت ساقى

يجرى بلا انقطاع!^(٣)

ومن بديع الوصف مما يثرى خيال الطفل، ويزيد من محصوله اللغوى بالتدرج

قوله من مقطوعة: سر الغصن النضير:

(١) قوس فرح ، أحمد زرزور ، مرجع سابق ، ص ٢ .

(٢) أغنية الأسير ، أحمد زرزور ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٣) ما قالته الغيمة الأخيرة ، أحمد زرزور ، ص ص ٧ ، ١٣ ط ١ هيئة الكتاب ١٩٩٤ .

"وقفت عند أنضر الأغصان

سألته عن سره،

فقال:

«يا صديق

الشجر النضير

يستمد خصبه من

جذره

العميق!»^(١)

والوصف المستجاد لدى الشاعر نجده أيضاً في مثل ذلك الاستهلاك من قصيدة

القمر والأحلام:

«الساعة التي على الجدار

تشير في المساء

نحو العاشرة

والقمر الدوار

مبتسماً يبدو الظلام

ويؤنس القوافل المسافرة»^(٢)

ألّفينا الصورة الفنية في السطر الأخيرة، صورة قرية تضيف لخبرات الطفل الوعى

بضوء القمر وأهميته في الصحراء، بعيداً عن المدن وأضواء الكهرباء الصناعية.

(١) المرجع السابق، ص ص ١٧، ١٨ .

(٢) وردة القمر، ديوان أحمد زرزور، ص ١٦ .

فى اللغة والخيال والإيقاع:

تمثل العناصر الثلاثة (اللغة والخيال والإيقاع) المرتكزات الرئيسة التى يصدر عنها شعر أحمد زرزور للأطفال، وفى الواقع أن أغلب أشعاره تتوجه إلى مرحلتى الطفولة الوسطى والمتأخرة فيما عدا بعض النصوص القليلة من مثل: المسحراتى ... طم ططم.. ططم)، يقول فى الأخيرة:

طم.. ططم.. ططم

يا نائمًا، للسحور: قم

طم.. ططم.. طم.. ططم

يا مؤمنًا، للصلاة: دم

طم.. ططم.. طم.. ططم

يا شهرنا، بالعطاء: عم!

طم.. ططم.. طم.. ططم

رمضاننا، وافر الكرم

طم.. ططم.. طم.. ططم

يهدى لنا أطيب النعم

طم.. ططم.. طم.. ططم

فلتشكر الله، واغتتم

طم.. ططم.. طم.. ططم

تسحر الآن، يا كرم

طم.. ططم.. طم.. ططم

وأيقظ الجار إن ينم

طم.. ططم.. طم.. ططم

وإن أتى الفجر، فلتصم^(١)

فالمنظومة السابقة تتوجه فى شكلها ومضمونها لأطفال المرحلة المبكرة من مراحل الطفولة، وتفيدهم كذلك فى اكتساب مفردات جديدة على قاموسهم اللغوى، وإذا كان الشاعر أحمد زرزور قد وفق تماماً فى تنويعات شعره للطفل، بحيث تضمن أغراضاً شتى تربوية وتعليمية ووصفية ووطنية ودينية واجتماعية، بل شعر مناسبات للطفل كالأعياد وغيرها، فإنه بحاجة إلى تجويد فنى مماثل لعنصرى (الخيال والإيقاع) لا جرم أن لغته سليمة فصحية، وخياله أو صورة سديدة وقرية التناول، مثلما يمتلكبنى الإيقاعية فى الشكلية (الحر والعمودى) لكننا إزاء بلوغ جمال الكمال الغنى فى كل أشعاره، ذلك أن بعض تجاربه _ وهى قليلة بالقياس إلى مجمل نتاجه للطفل _ قد لامسها بعض الهنات، ولو تخلص منها لأصبح أحد أهم الشعر العربى المعاصر فى أصوات أدب أطفالنا.

من أمثلة ما ألفناه تلکم الصورة الخيالية المركبة الممتدة قوله:

فى موكب عجيب

لا الليل فيه يسبق

اطلاته النهار

ولا النهار يمرق

وينزع الأستار^(٢)

لعلها رتية الإيقاع، عالية المستوى اللغوى، غير قرينة التأويل فى رسم الصورة، وذات التأويل الذى قصدناه نجده فى مثل التباين فى رسم الصورة على لسان القمر من قصيدة (أين يروح القمر؟):

وليس لأننى أرحل

إلى مدن بعيدات، ولست أعود

(١) سلام عليكم ، ديوان أحمد زرزور ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٢) سلام عليكم ، مرجع سابق ، ص ٨ .

فإننى صاحب الأطفال والأزهار والبيدر

وعدتهمو، وسوف أعود

ولكنى؛

لأن الأرض لؤلؤة معلقة بسقف الكون

دائرة تلف، تلف

أغيب هنا،

لأسخو بالضياء هناك^(١)

وكنا نود لو أوضح الشعر ظاهر تعاقب الليل والنهار (الشمس والقمر) بدلاً من
الأرض (لؤلؤة معلقة يسقف الكون) مما يحير جمهور الأطفال

مثال آخر للصعوبة اللغوية(*) قوله فى صور غير مستجادة:

الشمس نستعر ص ٩ قوس قزح)، (الريح تحسدى ص ٩)، (لولاه ما حلقت فى
أفق الزاهر ص ١٠ ديوان قوس قزح)، (نحب الحمام والاقحوان ص ١٥ ديوان ما
قاله القيمة الأخيرة). (تعلو على سرير الأفق ص ٣ ما قالته القيمة الأخيرة، (نقيرش
حصاة الرمل - يلتحف ثلوج الكيل ص ٤ أغنية الأسير)، (فالينا يتدلى الشر - لا
يأتى من أعلى خير ص ٢٠ بلياتشو) وغيرها من نادر الشواهد اللغوية الصعبة، أما
الخيال وعلاقته برسم الصورة فيكاد يخبو فى مجمل نتاج الشاعر، كان قلنا فى مرات
قليلة سواء فى تباينه أو طوله ومنه:

«غدا افيض

حين تهل الغيمة الرفراف

فترجع الطيور للضفاف

وينعس الأطفال فى أمان

(١) ما قالته القيمة الأخيرة، مرجع سابق، ص ١٥.

(*) أهملنا عن قصد تناول محاولته التجريبية الكتابة باللهجة الدارجة (عامية) فى ديوانه للطفل (طنانة
زنانة) مما يتعارض وأجد أهم الأهداف الوظيفية فى أدب الطفل.

فهل جفاف النهر أم فيضانه من عوامل تعاس الطفل دون سواء من بين سكان حضارة النهر..

ومن الأخطاء التأليفية _ ربما غير المقصود _ تكرار نشر الشاعر لبعض قصائده للطفل في أكثر من ديوان من مثل:

"قصيدة أغنية إلى زهرة عباد الشمس"، وقصيدة "أين يروح القمر" وقصيدة "أغنية الولد الفلسطيني" والتي تنقلت بين دواوين: قوس قزح، سلام عليكم، وردة القمر، ما قالت الغيمة الأخيرة؛ وذلك المزلق قد لا نعيب الشاعر في تبويبه لتواجه، لأنه غزير الإنتاج، جيده، ولديه ما يكفى لسد حاجات الطفل دوغما تكرار، والمأمول ملاحظة ذلك في قادم الطبقات.

إن ما ذكرناه من هنات قصار، لا يقلل من إبداع متنوع لدى الشاعر فهو جيد المستوى، ينمو مع كل جديد للطفل، ولو أكمل شاعرنا منظومته الشعرية للطفل بكتابة النشيد، والمسرحية الشعرية القصيرة، لاكتملت لدينا مقومات فارس شعر الطفولة المعاصر، في لغته القريبة من عالم الطفل، وفي خياله بسيط التناول رشيق الصورة، وفي إيقاعه المتناسك والملائم في الشكليات العمودية والحر، وهو ما يقدمه في اقتدار فني ملحوظ.

(١) وردة القمر، مرجع سابق، ص ١٣.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: اللواوين الشعرية:

- (١) أحمد زرزور: وردة القمر، ط١ دار الملتقى، قبرص، ١٩٩٥م.
- (٢) : ما قالته الغيمة الأخيرة، ط١ هيئة الكتاب القاهرة ١٩٩٢ .
- (٣) : أغنية الأسير، ط١ دار الجهاد، القاهرة ١٩٩٨م.
- (٤) : «بلياتشو» ، ط١ هيئة قصور الثقافة، القاهرة العدد ١٨ . د.ت.
- (٥) : سلام عليكم، ط١ دار الجهاد، القاهرة ١٩٩٨م.
- ٦ : كى يسلم الجميع.. ط المركز القومي لثقافة الطفل بالاشتراك مع (اليونسيف)، القاهرة ١٩٩٥م.
- (٧) : قوس قزح، ط١ دار الجهاد، القاهرة، ١٩٩٨م.

ثانياً: الكتب العربية:

- (٨) أحمد زلط (دكتور) : الطفل مبدعاً، ط١ دار هبة النيل، القاهرة ٢٠٠٣م.
- (٩) : ذاكرة السحر، ط١ دار هبة النيل، القاهرة ٢٠٠٣م.
- ١٠ : معجم الطفولة، ط١ دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣م.
- ١١ : الخطاب الأدبي والطفولة، ط١ وزارة الثقافة القاهرة ١٩٩٧م.
- (١٢) مجدى وهبة (دكتور): معجم مصطلحات الأدب، ط١ بيروت، د.ت.
- (١٣) نوري جعفر (دكتور) : الأصالة فى مجال العلم والفن، ط١ بغداد ١٩٨٧م.
- ١٤ : سيكولوجية الإلهام، بغداد ١٩٨١م.

ثالثاً: الكتب الأجنبية

- 15) Awakening To Life, A.Meshcheryakov, Moscow, 1979.
- 16) Child Development and Education, Lada, Aidarova, Moscow, 1982.

رابعاً: الدوريات:

- (١٧) الفت حقى (دكتور): ثقافة الطفل، مقالة بمجلة عالم الفكر الكويتية، مج ١٠، العدد ٣٤.
- (١٨) يحيى الرخاوى (دكتور): الأدب والفنون، مقالة بمجلة فصول القاهرية، مج، ع ٢.